تفسير ابن كثير

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده { للذي ببكة } يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر ا له في ذلك ونادى الناس إلى حجه ولهذا قال تعالى : { مباركا } أي وضع مباركا { وهدى للعالمين } وقد قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر Bه قال : [قلت يا رسول ا أي مسجد وضع في الأرض أول ؟ قال المسجد الحرام قلت : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة قلت : ثم أي ؟ قال : ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد] وأخرجه البخاري ومسلم من حديث الأعمش به وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا سعيد بن سليمان عن شريك عن مجالد عن الشعبي عن علي Bه في قوله تعالى : { إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا } قال : كانت البيوت قبله ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة ا وحدثنا أبي حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن سماك عن خالد بن عرعرة قال : قام رجل إلى علي Bه فقال : ألا تحدثني عن البيت أهو أول بيت وضع في الأرض ؟ قال : لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا وذكر تمام الخبر في كيفية بناء إبراهيم البيت وقد ذكرنا ذلك مستقصى في أول سورة البقرة فأغنى عن إعادته هنا وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقا والصحيح قول علي Bه فأما الحديث الذي رواه البيهقي في بناء الكعبة في كتابه دلائل النبوة من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عبد ا بن عمرو بن العاص مرفوعا بعث ا جبريل إلى آدم وحواء فأمرهما ببناء الكعبة فبناه آدم ثم أمر بالطواف به وقيل له : أنت أول الناس وهذا أول بيت وضع للناس فإنه كما ترى من مفردات ابن لهيعة وهو ضعيف والأشبه وا أعلم أن يكون هذا موقوفا على عبد ا بن عمرو ويكون من الزاملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك من كلام أهل الكتاب .

وقوله تعالى : { للذي ببكة } بكة من أسماء مكة على المشهور قيل : سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها وقيل : لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون قال قتادة : إن ا بك به الناس جميعا فيصلي النساء أمام الرجال ولا يفعل ذلك ببلد غيرها وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعمرو بن شعيب ومقاتل بن حيان وذكر حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس Bه قال : مكة

من الفج إلى التنعيم وبكة من البيت إلى البطحاء وقال شعبة عن المغيرة عن إبراهيم : بكة البيت والمسجد وكذا قال الزهري وقال عكرمة في رواية و ميمون بن مهران : البيت وما حوله بكة وما وراء ذلك مكة وقال أبو صالح وإبراهيم النخعي وعطية العوفي ومقاتل بن حيان : بكة موضع البيت وما سوى ذلك مكة وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة : مكة وبكة والبيت العتيق والبيت الحرام والبلد الأمين والمأمون وأم رحم وأم القرى وصلاح والعرش على وزن بدر والقادس لأنها تطهر من الذنوب والمقدسة والناسة بالنون وبالباء أيضا والحاطمة والنساسة والرأس وكوثاء والبلدة والبنية والكعبة .

وقوله تعالى : { فيه آيات بينات } أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم وأن ا عظمه وشرفه ثم قال تعالى : { مقام إبراهيم } يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران حيث كان يقف عليه ويناوله إسماعيل وقد كان ملتصقا بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب Bه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف لأن ا تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال : { واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى } وقد قدمنا الأحاديث في ذلك فأغنى عن إعادتها ههنا و الحمد والمنة وقال العوفي عن ابن عباس في قوله { فيه آيات بينات مقام إبراهيم } أي فمنهن مقام إبراهيم والمشعر وقال مجاهد : أثر قدميه في المقام آية بينة وكذا روى عن عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وغيرهم وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة : .

(وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافيا غير ناعل) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد وعمرو الأودي قالا : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى : { مقام إبراهيم } قال : الحرم كله مقام إبراهيم ولفظ عمرو : الحجر كله مقام إبراهيم وروي عن سعيد بن جبير أنه قال : الحج مقام إبراهيم هكذا رأيته في النسخة ولعله الحجر كله مقام إبراهيم وقد صرح بذلك مجاهد وقوله تعالى : { ومن دخله كان آمنا } يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية كما قال الحسن البصري وغيره : كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو يحيى التيمي عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى { ومن دخله كان آمنا } قال : من عاذ بالبيت أعاذه البيت ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى فإذا خرج أخذ بذنبه وقال ا تعالى : { أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم } الاية وقال تعالى : { فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف } وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره وحرمة قطع شجرها وقلع

حشيشها كما ثبتت الأحاديث والاثار في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعا وموقوفا ففي الصحيحين واللفظ لمسلم عن ابن عباس Bه قال : [قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم يوم الفتح فتح مكة] لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا [وقال يوم الفتح فتح مكة إن هذا البلد حرمه ا يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة ا إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار فهو حرام بحرمة ا إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها فقال العباس : يا رسول ا إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال إلا الإذخر] ولهما عن أبي هريرة مثله أو نحوه ولهما واللفظ لمسلم أيضا عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولا قام به رسول ا صلى ا عليه وسلّم الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به إنه حمد ا وأثنى عليه ثم قال [إن مكة حرمها ا ولم يحرمها الناس فلا يحل لامريء يؤمن با واليوم الاخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص بقتال رسول ا صلى ا عليه وسلّم فيها فقولوا له إن ا أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب] فقيل لأبي شريح : ما قال لك عمرو ؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح إن الحرم لا يعيذ عاصيا ولا فارا بدم ولا فارا بخزية وعن جابر Bه قال : سمعت رسول ا صلى ا عليه وسلّم يقول [لا يحل لأحد كم أن يحمل بمكة السلاح] رواه مسلم وعن عبد ا بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول ا صلى ا عليه وسلّم وهو واقف بالحزورة بسوق مكة يقول [وا إنك لخير أرض ا وأحب أرض ا إلى ا ولولا أني أخرجت منك ما خرجت] رواه الإمام أحمد وهذا لفظه و الترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي : حسن صحيح وكذا صحح من حديث ابن عباس نحوه وروى أحمد عن أبي هريرة نحوه وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا بشر بن آدم ابن بنت أزهر السمان حدثنا أبو عاصم عن زريق بن مسلم الأعمى مولى بني مخزوم حدثني زياد ابن أبي عياش عن يحيى بن جعدة بن هبيرة في قوله تعالى : { ومن دخله كان آمنا } قال : آمنا من النار وفي معنى هذا القول الحديث الذي رواه البيهقي : أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان حدثنا أحمد بن عبيد حدثنا محمد بن سليمان الواسطي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا ابن المؤمل عن ابن محيصن عن عطاء عن عبد ا بن عباس قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [من دخل البيت دخل في حسنة وخرج من سيئة وخرج مغفورا له] ثم قال : تفرد به عبد ا بن المؤمل وليس بالقوي وقوله { و على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا } هذه آية وجوب الحج عند الجمهور وقيل : بل هي قوله { وأتموا الحج والعمرة } والأول أظهر وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضروريا

وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع قال الإمام أحمد C : حدثنا يزيد بن هارون حدثنا الربيع بن مسلم القرشي عن محمد بن زياد عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقال [أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال رجل : أكل عام يا رسول ا ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه] ورواه مسلم عن زهير بن حرب عن يزيد بن هارون به نحوه وقد روى سفيان بن حسين وسليمان بن كثير وعبد الجليل بن حميد ومحمد بن أبي حفصة عن الزهري عن أبي سنان الدؤلي واسمه يزيد بن أمية عن ابن عباس Bه قال خطبنا رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقال : [يا أيها الناس إن ا كتب عليكم الحج فقام الأقرع بن حابس فقال : يا رسول ا أفي كل عام ؟ فقال لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا أن تعملوا بها الحج مرة فمن زاد فهو تطوع] رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث الزهري به ورواه شريك عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس بنحوه وروي من حديث أسامة بن يزيد .

قال الإمام أحمد : حدثنا منصور بن وردان عن علي بن عبد الأعلىلا عن أبيه عن أبي البختري عن علي Bه قال : لما نزلت { و على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا } قالوا : [يا رسول ا في كل عام ؟ فسكت قالوا : يا رسول ا في كل عام ؟ قال لا ولو قلت نعم لوجبت] فأنزل ا تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم } وكذا رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث منصور بن وردان به ثم قال الترمذي حسن غريب وفيما قال نظر لأن البخاري قال : لم يسمع أبو البختري من علي وقال ابن ماجه : حدثنا محمد بن عبد ا بن نمير حدثنا محمد بن أبي عبيدة عن أبيه عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك قال : قالوا : [يا رسول ا الحج في كل عام ؟ قال لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لم تقوموا بها ولو لم تقوموا بها لعذبتم] وفي الصحيحين من حديث ابن جريج عن عطاء عن جابر عن سراقة بن مالك [قال يا رسول ا متعتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد ؟ قال لا بل للأبد] وفي رواية [بل لأبد أبد] .

وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود من حديث واقد بن أبي واقد الليثي عن أبيه أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال لنسائه في حجته [هذه ثم ظهور الحصر ـ يعني ثم الزمن ظهور الحصر ـ ولا تخرجن من البيوت] وأما الاستطاعة فأقسام : تارة يكون الشخص مستطيعا بنفسه وتارة بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام قال أبو عيسى الترمذي : حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا إبراهيم بن يزيد قال : سمعت محمد بن عباد بن جعفر يحدث عن ابن عمر Bهما [قال قام رجل إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم فقال : من الحاج يا رسول

ا ؟ قال : الشعث التفل فقام آخر فقال : أي الحج أفضل يا رسول ا ؟ قال : العج والثج فقام آخر فقال : ما السبيل يا رسول ا ؟ قال : الزاد والراحلة] وهكذا رواه ابن ماجه من حديث إبراهيم بن يزيد وهو الخوزي قال الترمذي : ولا نعرفه إلا من حديثه وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه كذا قال ههنا وقال في كتاب الحج : هذا حديث حس لا يشك أن هذا الإسناد رجاله كلهم ثقات سوى الخوزي هذا وقد تكلموا فيه من أجل هذا الحديث لكن قد تابعه غيره فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبد العزيز بن عبد ا العامري حدثنا محمد بن عبد ا بن عبيد بن عمير الليثي عن محمد بن عباد بن جعفر قال : جلست إلى عبد ا بن عمر قال : [جاء رجل إلى النبي صلى ا عليه وسلّم فقال له : ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة] وهكذا رواه ابن مردويه من رواية محمد بن عبد ا بن عبيد بن عمير به ثم قال ابن أبي حاتم : وقد روي عن ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك وقد روي هذا الحديث من طرق أخرى من حديث أنس وعبد ا بن عباس وابن مسعود وعائشة كلها مرفوعة ولكن في أسانيدها مقال كما هو مقرر في كتاب الأحكام وا أعلم وقد اعتنى الحافظ أبو بكر بن مردويه بجمع طرق هذا الحديث ورواه الحاكم من حديث قتادة عن حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم [سئل عن قول ا D { من استطاع إليه سبيلا } فقيل : ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة] ثم قال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقال ابن جرير : حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن يونس عن الحسن [قال قرأ رسول ا صلى ا عليه وسلّم { و على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا } فقالوا : يا رسول ا ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة] ورواه وكيع في تفسيره عن سفيان عن يونس به وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أنبأنا الثوري عن إسماعيل وهو أبو إسرائيل الملائي عن فضيل يعني ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : [قال رسول ا A تعجلوا إلى الحج ـ يعني الفريضة ـ فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له] وقال أحمد أيضا : حدثنا أبو معاوية حدثنا الحسن بن عمرو الفقيمي عن مهران بن أبي صفوان عن ابن عباس قال : [قال رسول ا A من أراد الحج فليتعجل] ورواه أبو داود عن مسدد عن أبي معاوية الضرير به وقد روى ابن جبير عن ابن عباس في قوله { من استطاع إليه سبيلا } قال : من ملك ثلاثمائة درهم فقد استطاع إليه سبيلا وعن عكرمة مولاه أنه قال : السبيل الصحة وروى وكيع بن الجراح عن أبي جناب يعني الكلبي عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال { من استطاع إليه سبيلا } قال الزاد والبعير وقوله تعالى : { ومن كفر فإن ا غني عن العالمين } قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر وا غني عنه وقال سعيد بن منصور عن سفيان عن ابن أبي نجيح عن عكرمة قال : لما نزلت { ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه } قالت اليهود : فنحن مسلمون قال ا D : فاخصمهم فحجهم يعني [فقال

لهم النبي A إن ا فرض على المسلمين حج البيت من استطاع إليه سبيلا فقالوا : لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا] قال ا تعالى : { ومن كفر فإن ا غني عن العالمين } وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد نحوه وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا عبد ا بن جعفر حدثنا إسماعيل بن عبد ا بن مسعود حدثنا مسلم بن إبراهيم وشاذ بن فياض قالا : حدثنا هلال أبو هاشم الخراساني حدثنا أبو إسحاق الهمداني عن الحارث عن علي Bه قال : [قال رسول ا A من ملك زادا وراحلة ولم يحج بيت ا فلا يضره مات يهوديا أو نصرانيا ذلك بأن ا قال : { و على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن ا غني عن العالمين }] ورواه ابن جرير من حديث مسلم بن إبراهيم به وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي زرعة الرازي : حدثنا هلال بن فياض حدثنا هلال أبو هاشم الخراساني فذكره بإسناده مثله ورواه الترمذي عن محمد بن يحيى القطعي عن مسلم بن إبراهيم عن هلال بن عبد ا مولى ربيعة بن عمرو بن مسلم الباهلي به وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفي إسناده مقال و هلال مجهول و الحارث يضعف في الحديث وقال البخاري : هلال هذا منكر الحديث وقال ابن عدي : هذا الحديث ليس بمحفوظ وقد روى أبو بكر الإسماعيلي الحافظ من حديث أبي عمرو الأوزاعي : حدثني إسماعيل بن عبيد ا بن أبي المهاجر حدثني عبد الرحمن بن غنم أنه سمع عمر بن الخطاب Bه يقول : من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه يهوديا مات أو نصرانيا وهذا إسناد صحيح إلى عمر Bه وروى سعيد بن منصور في سننه عن الحسن البصري قال : قال عمر بن الخطاب Bه : لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الأمصار فينظروا كل من كان له جدة فلم يحج فيضربوا عليهم الجزية ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين